الفصل السابع عشر

فاصل روسى

١٧٢٥ — ١٧٦٢

١ — العمل والحكم

كتب فريدريك الأكبر حوالى عام ١٧٧٦ يقول : « من بين جيران بروسيا أجمعين تستحق روسيا أعظم الاهتمام لأنها أخطرهم ، فهى قوية وقريبة : وسيضطر حكام بروسيا القادمون كما اضطررت أنا للسعى إلى صداقة هؤلاء الهمج » [١] .

وعلينا دائما ونحن نفكر فى روسيا أن نتذكر حجمها . كانت فى عهد كاترين الثانية تضم أستونيا وليفونيا وفنلنده (بعضها) ، وروسيا الأوربية ، وشمالى القوقاز ، وسيبريا . وقد اتسعت رقعتها من ٦٨٧٫٠٠٠ إلى ٩١٣٫٠٠٠ كيلو متر مربع فى القرن الثامن عشر ، وزاد سكانها من ثلاثة عشر مليونا فى ١٧٢٢ إلى ستة وثلاثين مليونا فى ١٧٩٠ [٢] . وفى ١٧٤٧ قدر فولتير سكان فرنسا أو ألمانيا بأنهم يزيدون قليلا على سكان روسيا ، ولكنه لاحظ أن روسيا تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أى من الدولتين . وسيقوم الزمن والأصلاب الروسية بملء تلك المساحات الشاسعة .

وفى عام ١٧٢٢ كان ٩٧٫٧ ٪ من سكان روسيا ريفيين ، وظلت نسبتهم ٩٦٫٤ ٪ فى ١٧٩٠ ، فقد كان التصنيع يسير ببطء شديد . وفى ١٧٦٢ كان كل الشعب إلا عشرة فى المائة منه فلاحين ، وكان ٥٢٫٤ ٪ من هؤلاء أقنانا [٣] ، ونصف الأرض يمتلكه نحو ١٠٠٫٠٠٠ من النبلاء ، ومعظم ما بقى منها تملكه الدولة أو الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وبعضها

يملكه فلاحون شبه أحرار ما زالوا يلتزمون بأداء الخدمات وبالطاعة للسادة المحليين ؛ وكانت ثروة المالك تحسب بعدد أقنانه ، من ذلك أن الكونت بيتر خيريميتييف بلغت ثروته ١٤٠٫٠٠٠ قن [٤] . وكان الأقنان الذين تمتلكهم الكنيسة وعددهم ٩٩٢٫٠٠٠ أهم جزء فى ثروتها ، وكان ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ قن يفلحون أراضى التاج فى ١٧٦٢ [٥] .

وكان الشريف يتكفل بالقيادة العسكرية والتنظيم الاقتصادى ، وهو عادة معفى من الخدمة العسكرية ولكنه كثيرا ما تطوع بها أملا فى الحظوة عند الحكومة . وكان له حقوق محاكمة أقنانه ، وله أن يعاقبهم ، أو يبيعهم أو ينفيهم إلى سيبيريا . على أنه كان عادة يسمح لفلاحيه بإدارة شئونهم بواسطة مجلس قريتهم أو « المير » وكان القانون يلزمه بإمداد أقنانه بالبزار وبإعالتهم فى فترات القحط . وقد ينال القن حريته بشرائها من مالكه أو بالانخراط فى سلك الجيش ، ولـــكن هذا مشروط برضى المالك . وكان للفلاحين الأحرار حق شراء الأقنان وامتلاكهم ، وكان بعض هؤلاء الأحرار ويلقبون « كولاكى » (أى القبضات) ، يهيمنون على الشئون القروية ، ويقرضون المال بالربا ، ويبزون السادة الإقطاعيين استغلالا وصرامة [٦] . وكان السيد والقن كلاهما متين السلالة ، صلب العود ، قوى الذراع واليد ، عكفا معا على تذليل التربة ، واضطلعا معا بعبء ترويض فصول السنة . وكانت المشاق أحيانا فوق مايطيق البشر ، بحيث نسمع مرارا باقنان يهجرون مزارعهم فى أعداد كبيرة ويختفون فى بولنده أو الأورال أو القوقاز ، وكان الالوف منهم يلقون حتفهم فى الطريق ، والالوف يتصيدهم الجند ويقبضون عليهم . وبين الحين والحين يهب الفلاحون فى ثورة مسلحة على سادتهم وعلى الحكومة ، وتنشب بينهم وبين الجيش معارك يستميتون فيها فى الدفاع عن أنفسهم ، ولكن الهزيمة تلاحقهم دائما ، فيزحف الاحياء منهم قافلين إلى واجباتهم — إلى أخصاب النساء بذريتهم ، والتربة بدمائهم .

وقد درب بعض الاقنان على الفنون والحرف ، فكانوا يمدون سادتهم بكل احتياجاتهم تقريبا . ويروى الـــكونت سيجور فى معرض حديثه عن

حفل أقيم لكاترين الثانية أن الشاعر الذى نظم الاوبرا والمؤلف الذى ألف موسيقاها ، والمعمارى الذى بنى قاعة الاستماع ، والنقاش الذى زخرفها ، وممثلى المسرحية وممثلاتها ، والراقصين والراقصات فى الباليه ، والموسيقيين فى الأوركسترا — كل أولئك كانوا أقنانا للكونت خريمتييف (٧) . وكان الفلاحون يصنعون فى الشتاء الطويل الملابس والأدوات التى سيحتاجون إليها فى السنة المقبلة . وكانت الصناعة فى المدن بطيئة التطور ، من جهة لأن كل بيت كان ورشة ، ومن جهة أخرى لأن صعوبات النقل كانت عادة تضيق السوق فلا تجاوز الجهات المجاورة للمنتج . وشجعت الحكومة المشروعات الصناعية بتقديمها الاحتكارات للمحظوظين ، وأحيانا بتزويدهم برأس المـــال ، وقد وافقت على أن يشارك الأشراف فى الصناعة والتجارة . وظهرت رأسمالية مبتدئة فى صناعات التعدين والميتالورجيا والعتاد الحربى ، وفى إنتاج المصانع للمنسوجات والخشب المنشور والسكر والزجاج . وسمح للا « مقاولين » بشراء الاقنان لتزويد مصانعهم بالعمال ، على أن هؤلاء « الفلاحين المملوكين » لم يكونوا مربوطين بالمالك بل بالمشروع ، وألزمهم مرسوم حكومى صدر فى ١٧٣٦ ، هم وذريتهم ، بالبقاء فى مصانعهم حتى يؤذن لهم رسميا بتركها . وكانوا فى حالات كثيرة يعيشون فى معسكرات منفصلين عن أسرهم فى الغالب الأعم (٨) .

أما ساعات العمل فتتفاوت بين أحدى عشرة وخمس عشرة فى اليوم للرجال ، تتخللها ساعة للغداء ، وأما الأجور فتتراوح بين أربعة روبلات وثمانية فى اليوم للرجال ، وبين روبلين وثلاثة للنساء . ولكن بعض أرباب العمل تكفلوا بإطعام عمالهم وإسكانهم ودفع الضرائب عنهم . وبعـــد عام ١٧٣٤ إزداد تشغيل العمال « الأحرار » — أى غير الأقنان — فى المصانع لأنه أتاح مزيدا من الحوافز للعمال وحقق مزيدا من الربح لرب العمل. وكان العمل من الرخص بحيث لا يشجع اختراع الآلات أو استخدامها ، ولكن فى عام ١٧٤٨ أستخدم بولزونوف آلة بخارية فى مصانع الحديد التى يمتلكها بالأورال . (٩)

وبدأت طبقة وسطى صغيرة عديمة الحول سياسيا تتشكل ببطء بين طبقتى النبلاء والفلاحين . ففى عام ١٧٢٥ كان نحو ثلاثة فى المائة من السكان تجارا : أصحاب متاجر فى القرى والمدن والأسواق ، ومستوردين للشاى والحرير من الصين والسكر والبن والتوابل والعقاقير من وراء البحـــار ، وللمنسوجات الفاخرة والخزف والورق من غربى أوربا ، ومصـــدرين للخشب والتربنتينة والقار وشحم الحيوان والكتان والقنب . وكانت القوافل تسافر إلى الصين بطريق سيبيريا أو بحر قزوين ، والسفن تقلع من ريجا وريفل ونارفا وسانت بطرسبرج . ولعل الأنهار والقنوات كانت تنقل من التجارة أكثر مما تنقله الطرق البرية أو البحرية .

وكانت موسكو تقع فى قلب تلك التجارة الداخلية ، وكانت من الناحية المادية أكبر مدن أوربا ، إذ أن بها شوارع طويلة عريضة ، و٤٨٤ كنيسة ومائة قصر ، وآلاف الأكواخ والزرائب ، وسكان بلغوا ٢٧٧,٥٣٥ فى ١٧٨٠ [١٠] ، والفرنسيون والألمـــان واليونان والإيطاليون والانجليز والهولنديون والأسيويون يتحدثون لغاتهم ويعبدون آلهتهم كما يشاءون . وكانت سانت بطرسبرج قلعة للحكومة . ومعقلا لأرستقراطية متفرنسة ، ومركزا للأدب والفن ، أما موسكو فكانت قطب الديانة والتجارة ، وتتسم بحياة نصف شرقيه لم تخلع عنها طابعها الوسيط ، وبوطنية سلافية مشربة بالغيرة والإخلاص . هاتان كانتا البؤرتين المتنافستين اللتين تدور حولهما المدنية الروسية ، حينا تمزق الشعب شطرين كالخلية المنقسمة ، وحينا نحيله مركبا متوترا سيصبح قبل ختام القرن مبعث الرعب لأوربا والحكم الفيصل فى مصيرها .

وكان محالا على شعب أضناه ووحشه صراعه مع الطبيعة ، وأعوزته أسباب الاتصال أو الأمن على الحياة ، وأفتقر أشد الافتقار إلى فرص التعليم وإلى الوقت الذى يفكر فيه — نقول إن شعبا كهذا كان محالا عليه أن يحظى بامتيازات الديمقراطية ومخاطرها ، اللهم إلا فى القرى المعزولة . ولم يكن بد من الاقطاعية فى صورة من صورها ، ومن ضرب عن النظام

الملكى فى الحكم المركزى . وكان من الأمور التى لابد من توقعهـــا أن تتعرض الملكية للانقلابات المتكررة ، تقوم بها أحزاب النبلاء المهيمنين على إمدادهم العسكرية للحكومة ، وأن تسعى الملكية إلى الحكم المطلق ، وأن تعتمد على الدين معوانا لجنودها وشرطتها وقضاتها على صيانة الاستقرار الاجتماعى والسلام الداخلى .

وكان الفساد عقبة كؤودا ســـدت كل مسالك الادارة . وحتى النبلاء الأثرياء الملتفون حول العرش كان من السهل أجتذابهم بـــ « الهدايا ». يقول كاستيرا الذى كان معاصرا تقريبا لهذه الحقبة « أن كان هنـــاك عاصم الروس من التملق ، فإنه مامن أحد منهم يستطيع مقاومة أغراء الذهب[١١] » . وكان النبلاء يهيمنون على حرس القصر ، ذلك الحرس المعز المذل ، الذى يقيم الملوك ويخلعهم ، ويؤلفون طبقة مميزة من الضباط فى الجيش ، ويملأون مجلس الشيوخ الذى كان يشرع القوانين فى عهـــد اليزابيث ، ويرأسون الوزارات (الكوليجيا) التى تهيمن على العلاقات الخارجية ، والمحاكم ، والصناعة ، والتجارة ، والمالية ، ويعينون الـــكتبة الذين يواصلون السير على النظام البيروقراطى ، ويوجهون إختيار الحاكم للمحافظين ، الذين يديرون الـ « جوبرنيات » أى المحافظات التى انقسمت إليها الامبرطورية ويختارون (بعد ١٧٦١) « الفويفوديين » الذين يحكمون الأقاليم . وكان مكتب الرقيب المالى المؤلف أكثره من رجال الطبقة الوسطى يبسط ظله على جميع فروع الحـــكومة ، وهو مكتب مخابرات إتحـــادى ، مخول له أن يكشف ويعاقب الإختلاس ، ولكنه ألفى نفســـه محبطاً رغم استخدامه المخبرين على نطاق واسع . فلو أن الملك رفت كل موظف مذنب بالرشوة والفساد لتوقف دولاب الدولة . وكان فى جباة الضرائب من الفهم للمال مالا يبقى لخزانة الدولة مما يجمعون أكثر من ثلثـــه .[١٢]

٢ ــ الدين والثقافة

كان للدين سلطان كبير فى روسيا . لأن الفقر كان مدقعاً ، ولأن تجار الأمل وجدوا مشترين كثيرين . واقتصرت الشكوكية على طبقة عليا

تقرأ الفرنسية، وكان للماسونية أتباع كثيرون فى هذه الطبقة[١٣] . أما سكان الريف وأكثر سكان المدن فكانوا يحيون فى عالم فوق طبيعى قوامه التدين الذى يشيع فيه الخوف ، يتخيلون الشياطين محيطة بهم، ويرسمون الصليب مراراً وتكراراً فى اليوم ، ويتضرعون للقديسين بالتشفع لهم ، ويتعبدون لرفاتهم ، يرهبون المعجزات ، ويرتعدون فرقاً من النذر ، ويخرون سجداً أمام الصور المقدسة ، ويولولون بترانيم كئيبة تنطلق من صدور جهيرة . وكان للكنائس أجراس ضخمة قوية ، وقد أقام بوريس جودونوف جرساً منها بلغ وزنه ٨٨٢٫٠٠٠ رطل ، ولكن الأمبراطورة أنا إيفانوفينا بزته فى هذا الميدان، إذ صب لها جرس يزن ٤٣٢٫٠٠٠ رطل[١٤]. وعمرت الكنائس بالمصلين ، وكانت الطقوس هنا أكثر مهابة ووقاراً والصلوات أكثر حماسة ووجدا منها فى روما البابوية نصف الوثنية . أما القساوسة الروس — وكل منهم يلقب بالبابا — فكانت لهم لحى وشعر مرسل وأردية قاتمة تصل إلى أقدامهم (لأن مظهر السيقان يتعارض مع الكرامة والوقار) . وقلما كانوا يختلطون بالنبلاء أو البلاط بل يعيشون فى بساطة متواضعة ، متبتلين فى أديرتهم أو متزوجين فى دورهم . وكان رؤساء الأديرة يحكمون الرهبان ، والرئيسات يحكمن الراهبات ؛ وكان الكهنة غير الرهبان يخضعون للأساقفة ، وهؤلاء لرؤساء الأساقفة ، وهؤلاء للمطارنة الإقليميين ، وهؤلاء للبطريرك فى موسكو ؛ والكنيسة بجملتها تعترف برئيس الدولة رأساً لها . وخارج الكنيسة عشرات من الملل والنحل تتنافس فى التصوف والتقوى والكراهية .

وأفاد الدين فى بث ناموس أخلاقى حقق بالجهد خلق النظام وسط الدوافع القوية التى طبع عليها شعب بدائى . واتخذ نبلاء البلاط أخلاق الأرستقراطية الفرنسية وعاداتها ولغتها ، وكانت زيجاتهم صفقات عقارية خفف من عبئها العشاق والخليلات . وكان نساء الطبقة أرقى تعليما من رجاله ، ولكنهن قد يتفجرن فى لحظات الغضب بألفاظ حامية وعنف قاتل . أما عامة الشعب فكانت لغتهم سوقية غليظة ، وكثر بينهم العنف ، وكانت القسوة تتفق وقوة البدن وصفاقة الجلد . وكان كل إنسان يقامر ويسكر حسب طاقته ،

ويسرق حسب منصبه[١٥] ، ولكن الكل كانوا محسنين ، وبزت الأكواخ القصور فى كرم الضيافة . وكانت الوحشية والكرم صفتين شائعتين فى المجتمع كله .

أما اللباس فيختلف من أزياء باريس العصرية . فى البلاط إلى القلانس من الفراء وجلد الغنم والقفازات الصفيقة التى يرتديها الفلاحون ، ومن جوارب النبلاء الطويلة الحريرية إلى الأربطة الصوفية التى تحتوى سيقان الأقنان وأقدامهم . وفى الصيف قد يستحم عامة الناس عراة فى الأنهار متجاهلين الجنس . وكانت الحمامات الروسية كالتركية عنيفة ولكنها محبوبة . وفيما خلا هذا كان الاهتمام بالنظافة الصحية عارضاً ، وحفظ الصحة العامة بدائيا . وكان النبـــلاء يحلقون لحاهم ، أما عامة الشعب فيطلقونها رغم مراسيم بطرس الأكبر .

وكان فى كل بيت تقريباً بالالايكا (جيتار) ، وكان فى سانت بطرسبرج على عهـــد اليزابيث وكاترين الثانية أوبرا مجلوبة من إيطاليا وفرنسا . وإليها وفد مشاهير المؤلفين والقادة الموسيقيين ، وأبرع مغنى العصر وعازفيه . وكان المال ينفق بسخاء على تعليم الموسيقى ، وقد أثبت صوابه وفائدته بتفجر العبقرية الموسيقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكان أصحاب الأصوات المبشرة من الذكور يرسلون من جميع أصقاع روسيا إلى الكنائس الكبرى لتدريبهم . ولما كانت الطقوس الكنسية اليونانية لا تبيح استعمال الآلات فى الكورس ، فإن الأصوات كانت حرة طليقة ، فحققت من أعماق الانسجام والتناغم ما لم يكن له نظير فى أى بلد آخر فى العالم ، وغنى الصبيان أدوار السوبرانو ، ولكن المرتلين بأصوات الباص (العميقة الخفيفة) هم الذين أذهلوا كثيرين من الأجانب بمدى الخفض فى أصواتهم وباتساع شعورهم من همسات الرقة والحنان إلى موجات القوة الحنجرية .

فمن تراهم مؤلفو هذه الموسيقى المؤثرة لفرق الترتيل الروسية ، أكثرهم رهبان مغمورين لم تقرع الأجراس لموتهم ولم تشتهر أسماؤهم . ويبرز

من بينهم راهبان فى القرن الثامن عشر . أولهما سوزونوفتش بيريزوفسكى الصبى الأوكرانى الذى وهب صوتاً كأنما خلق ليتعبد لله . وأوفدته كاترين الثانية إلى إيطاليا على نفقة الدولة ليحصل أفضل التعليم الموسيقى ، وعاش سنوات فى بولونيا ، وتعلم التأليف الموسيقى على البادرى مارتينى . فلما عاد إلى روسيا كتب موسيقى دينية جمعت بين القوة الروسية والرشاقة الإيطالية . وقوبلت جهوده لإصلاح ترتيل الكورس بالمقاومة من أنصار القديم ، فبات فريسة لاكتئاب مرضى ، وقتل نفسه غير مجاوز الثانية والثلاثين (١٧٧٧) [١٦] . أما الثانى ، وهو أشهر منه ، فاسمه ديمترى بورتنيانسكى ، الذى أدخل وهو لا يزال طفلا فى السابعة كورس كنيسة البلاط ، وناطت الإمبراطورة اليزابيث جالوبى بتعليمه ، فلما عاد جالوبى إلى إيطاليا أوفدت كاترين الثانية ديمترى معه إلى البندقية ومنها انتقل إلى يد البادرى مارتينى ثم إلى روما ونابلى ، حيث ألف موسيقى على الطريقة الإيطالية . وفى ١٧٧٩ عاد إلى روسيا ، وسرعان ما عين مديرا لكورس كنيسة البلاط ، وقد احتفظ بمنصبه هذا حتى مماته (١٨٢٥) . وقد ألف لفرقة الترتيل قداسا يونانيا ، وموسيقات فى أربعة وثمانية أقسام لخمسة وخمسين مزمورا . وتدريبه للفرقة يرجع له أكثر الفضل فى بلوغها مكانة من التفوق جعلتها إحدى عجائب العالم الموسيقى . وفى ١٩٠١ احتفلت سانت بطرسبرج بذكرى ميلاده المائة والخمسين بمظاهر الأبهة والفخامة .

أما الفن الروسى فقد سيطر عليه التأثير الفرنسى ، ولكن الشخصية القائدة فيه كان إيطاليا يدعى فرانشيسكو (أوبارتولوميو) راستريللى . وكان بطرس الأكبر قد استقدم أبلى كارلو إلى روسيا (١٧١٥) ، فصب بالبرونز تمثالا لبطرس ممتطيا صهوة جواد ، وآخر بالحجم الطبيعى للإمبراطورة أنا أيفانوفنا . وورث الابن طراز لويس الخامس عشر الذى جلبه كارلو من فرنسا ، وأضاف إليه بعض ما استوحاه من روائع الباروك التى صنعها بلتازار نويمان وفيشر فون أرلاخ فى ألمانيا والنمساء ، وقد طوع هذه التأثيرات لحاجات روسيا وطرزها الفنية بانسجام فائق حتى أصبح المعمارى المقرب للقيصرة اليزابيث . ويكاد يكون كل بناء روسى ذى خطر

مشيد من ١٧٤١ إلى ١٧٦٣ مصمماً بيده أو بيد معاونيه . فعلى ضفة نيفا اليسرى أقام (١٧٣٢ — ٥٤) « القصر الشتوى » الذى أحرق فى ١٨٣٧ ولكن أعيد بناؤه طبقاً لتصميمه الأصلى فيما يظن : كتلة هائلة من النوافذ والعمد فى ثلاث طبقات ، تعلوها التماثيل والشرفات المفرجة ؛ وكان أقرب منه إلى ذوق اليزابث قصر زاركوى سيلو (أى قرية القيصر) ، المشيد على ربوة تبعد خمسة عشر ميلا جنوبى سانت بطرسبرج . وعلى يساره بنى كنيسة ، وفى داخل القصر كان سلم فخم يؤدى إلى قاعة كبرى تضيئها نوافذ ضخمة بالنهار وست وخمسون ثريا بالليل ؛ وفى الطرف الأبعد قاعة العرش وأجنحة الأمبراطورة ، ثم حجرة صينية تقدم فروض الاجلال التى درج القرن الثامن عشر على تقديمها للفن الصينى . وهناك « حجرة الكهرمان » المكسوة بألواح من الكهرمان والتى أهداها فردريك وليم الأول بديلا لخمسة وخمسين من رماة القنابل اليدوية الفارعى الاجسام ، وقاعة للصور تضم بعض المجموعات الأمبراطورية . أما داخل القصر فأكثره بزخرفة روكوكية ، وصفها رحالة إنجليزى بأنها « مزيج من الهمجية والفخامة »[١٧] . وقد أزيلت بأمر كاترين الثانية زخارف الواجهة الذهبية ، فقد كانت كاترين بسيطة نقية فى ذوقها .

وكان الأدب أبطأ تطوراً من الفن . فقد افتقد التشجيع لندرة القراء ، وقيدت رقابة الكنيسة والدولة حرية التعبير ، ولم تكن اللغة الروسية قد صقلت ذاتها نحواً ولفظاً بحيث ترقى إلى مستوى الأداة الأدبية . ومع ذلك فحتى قبل تولى اليزابيث العرش (١٧٤٢ (ترك ثلاثة من الكتاب بصماتهم على صفحة التاريخ . وأولهم فازيلى تاتيشيف — كان صاحب نشاط وفكر ، رحالة ومؤرخاً ، دبلوماسياً وفيلسوفاً ، يحب روسيا ولكنه يفتح عقله فى تشوق للتطورات الاقتصادية والفكرية فى الغرب . وكان واحداً من ذلك النفر من الشباب الذين أوفدهم بطرس إلى الخارج بغية إخصاب روسيا فكرياً . وقد عاد بأفكار خطرة : فقد قرأ الأصول أو الخلاصات لكتب

بيكون وديكارت ولوك وجروتيوس وبيل ، وذبل إيمانه السنى ، فلم يؤيد الدين إلا بوصفه معواناً على الحكم[١٨] . وقد خدم بطرس فى حملات حربية خطرة . وأصبح حاكماً لأستراخان ، واتهم بالاختلاس .[١٩] واجتمع له من جولاته ذخيرة من المعلومات الجغرافية والعرقية والتاريخية انتفع بها فى كتابة « تاريخ روسيا » . وقد أغضب هذا الكتاب رجال الدين ، ولم يجرؤ أحد على طبعه حتى السنوات السمحة الأولى من حكم كاترين الثانية (١٧٦٨ — ١٧٧٤) .

وواصل ثانى هؤلاء الكتاب الثلاثة — وهو الأمير أنطيوخ كانتمير — التمرد على اللاهوت . كان ابناً لحاكم (هوسبودار) ملدانى ، وجىء به إلى روسيا فى عامه الثالث ، وتعلم الحديث بست لغات ، وخدم فى السفارات الروسية فى لندن وباريس ، والتقى بمونتسكيو وموبرتوى ، فلما عاد كتب نقداً لاذعاً لأولئك الغلاة من الوطنيين الداعين للجامعة السلافية ، المعارضين لتلويث الحياة الروسية بالأفكار الغربية . وإلى القارىء طرفاً من قصيدته « إلى عقلى » :

« أيها العقل الفج ، ياثمرة الدراسات الحديثة ، أمسك ، ولا تدفع القلم فى يدى ... ما أكثر الطرق السهلة المؤدية فى زماننا هذا إلى أسباب التشريف ، ولكن أقل الطرق تقبلا هو الطريق الذى خططته الأخوات الحافيات التسع (ربات الفنون) ... عليك أن تكد وتكدح هناك ، وبينما تشقى أنت يتجنبك الناس كأنك الوباء ويتهكمون عليك ، ويبغضونك ... ... «أن الذى يكب على الكتب ينقلب كافراً » ، هكذا يدمدم كريتو متذمراً فى يده مسبحته... ويريدنى أن أرى مبلغ الخطر فى بذرة المعرفة التى تلقى بيننا : إن أطفالنا ..... مما يفزع الكنيسة ، بدأوا يقرأون الكتاب المقدس ، وهم يناقشون كل شىء ويريدون معرفة العلة لكل شىء ، ولا يضعون فى رجال الدين إلا أقل الثقة . . . إنهم لا يوقدون الشمع أمام الصور ، ولا يحفظون المواسم والأعياد ...

« أيها العقل ، نصيحتى لك أن تصبح أشد صمماً من قطعة زلابية ،

ولا تشك لأنك مغمور ... وإذا كانت الحكمة المنعمة قد علمتك شيئاً، ... فلا تشرحه لغيرك » [٢٠] .

وزاد كانتيمير من إساءاته بترجمته كتاب فولتنيل « أحاديث حول تعدد العوالم » ، وقد أدين الكتاب لأنه كوبرنيقى ، مهرطق ، مجدف ، ولكن كانتيمير أحبط مابيته له مضطهدوه ، فقد مات وهو فى السادسة والثلاثين (١٧٤٤) . ولم تجد هجائياته ناشراً يقدم على نشرها حتى عام ١٧٦٢ .

وفى عهد القيصرة اليزابيث بدأ الأدب الروسى يؤكد ذاته شيئاً أكثر من مجرد كونه صدى للأدب الفرنسى . وقد شعر ثالث إهؤلاء الكتاب ، وهو ميخائيل لومونوزف ، بالتأثير الألمانى لا الفرنسى ، وكان قد درس فى ماربورج وفرايبورج ، ثم تزوج فتاة ألمانية ، وجلب معها إلى سانت بطرسبرج حملا ثقيلا من العلم . وأصبح سبع الأكاديمية المبرز فى كل شىء حتى فى الشراب [٢١] . ورفض أن يتخصص ، فكان عالماً فى المعادن ، وجيولوجياً ، وكيمائياً ، وكهربائياً ، وفلكياً ، واقتصادياً ، وجغرافياً ، ومؤرخاً ، وفيلولوجياً ، وخطيباً . وقد لقبه بوشكن « أول جامعة روسية » [٢٢] وفى غمار هذا كله كان يقرض الشعر :

وكان منافسه الأكبر على ثناء الطبقة المفكرة هو ألكسيس سوماروكوف الذى نشر ديواناً من القصائد الغنائية من نظمه ونظم لومونوسوف ليظهر أنه أشعر منه (وكان الفرق بينهما طفيفاً) . أما مفخرة سوماروكوف الحقيقية فهى انشاؤه مسرحاً قومياً روسيا (١٧٥٦) ألف له تمثيليات رددت صدى تمثيليات راسين وفولتير . وقد ألزمت اليزابيث حاشيتها بالحضور ، وكانوا لا يدفعون أجرا عن دخول المسرح ، فشكا سوماروكوف من أن راتب الخمسة آلاف روبل الذى يتقاضاه فى العام لا يقيم أوده ، ولا يعين مسرحه على الحياة . « أن ماكان الناس يشهدونه فى أثينا يوما وما يشهدونه اليوم فى باريس ، يشهدونه كذلك فى روسيا بفضل اهتمامى . . . وفى ألمانيا لم يوفق حشد من الشعراء لما وفقت إلى صنعه بجهودى أنا وحدى » [٢٣] .

وفى ١٧٦٠ أعيا من هذه الجهود المضنية فشد رحاله إلى موسكو ، ولكن ميله للشجار ما لبث أن أورثه الفقر هناك . فناشد كاترين الثانية أن تبعث به إلى الخارج على نفقة الدولة ، وأكد لها أنه « لو وصف أوربا قلم كقلمى ، لما كفاه ٣٠٠,٠٠٠ روبل » (٢٤) واحتملته كاترين فى صبر حتى مات صريع الشراب (١٧٧٧) .

ولنبعث الآن شيئاً من الإشراق فى هذه الصفحات بقصة غرام بطلتها أميرة إسمها ناتاليا بوريسوفنا دولجوروكايا ، وكانت إبنة الكونت والمشير بوريس خريميتيف ، رفيق سلاح بطرس الأكبر . فنى ربيعها الخامس عشر (١٧٢٩) يوم كانت « باهرة الجمال ومن كبار الوارثات فى روسيا » (٢٥) خطبت لفاسيلى لوكيش دولجوروكى ، أقرب المقربين للقيصر بطرس الثانى . وقبل أن يتاح عقد القران مات بطرس ، فنفى خلفه فاسيل إلى سيبريا ، وأصرت ناتاليا على أن تتزوجه وتتبعه إلى المنفى . وعاشت معه ثمانية أعوام فى تبولسك ، وولدت له طفلين . وفى عام ١٧٣٩ أعدم ، وبعد أن قضت فى المنفى ثلاثة أعوام أخرى سمح لها بالعودة إلى روسيا الأوربية فأكملت تعليم أبنائها ، ثم دخلت ديرا فى كييف . هناك ، واستجابة لرجاء ولدها ميخائيل ، كتبت « مذكراتها » (١٧٦٨) التى نشرها حفيدها الشاعر الأمير إيفان ميخايلوفيتش دولجوروكى فى ١٨١٠ . وقد أحيا ذكراها ثلاثة شعراء روس ، وهى محل إجلال روسيا باعتبارها نموذجا للكثيرات من النساء الروسيات اللاتى شرفن الثورة ببطولتهن ووفائهن .

والخلاصة أن الحضارة الروسية فى جملتها كانت مزيجا من الإنضباط الحتمى والاستغلال القاسى ، ومن التدين والعنف ، ومن الصلاة والتجديف ، ومن الموسيقى والتبذل ، ومن الوفاء والقسوة ، ومن الخضوع الذليل والبسالة التى لا تقهر . ولم يستطيع القوم أن يكتسبوا فضائل السلم لأنه كان لزاما عليهم أن يخوضوا ، خلال فصول شتاء مديدة ، وليالى قارسة البرد طويلة ، حربا مريرة مع الرياح القطبية التى تكتسح سهولهم المتجمدة دون ما حاجز يعوقها . إنهم لم يعرفوا قط النهضة الأوربية ولا الإصلاح

البروتستنتى ، ومن ثم كانوا — إلا فى عاصمتهم المتكلفـــة — لا يزالون أسرى قيود العصر الوسيط . وكانوا يعزون أنفسهم بكبرياء العرق ويقين الإيمان ، دون أن يبلغ ذلك بعد مبلغ النزعة القومية الأقليمية ، إنما كان إقتناعاً ضمارياً بأنه بينما كان الغرب يورد نفسه موارد الهلاك بالعلم والثروة والوثنية والكفر ، أقامت « روسيا المقدسة » وفية لمسيحية آباء الكنيسة الأولين ، أقرب الأمم إلى قلب المسيح وأحبها إليه ، وإليها سيؤول حكم العالم وافتداؤه ، يوما ما .

٣ — السياسة الروسيـــة

١٧٢٥ — ٤١

ليس تاريخ روسيا فيما بين بطرس الأكبر واليزابث بتروفنا إلا سجلا كئيبا محيراً من الدسائس وثورات القصر . فهذه الحقبة تتيح لنا — إن كان لحقبة ما أن تتيح — ونحن مطمئنون — أن نوفر فى الحيز والوقت. ومع ذلك فلا مناص من ذكر بعض عناصر هذا الخليط إن أردنا أن نفهم مركز كاترين الكبرى وخلقها وسلوكها .

كان الوريث الطبيعى للعرش عام ١٧٢٥ بيوتر ألكسيفتش ، صبى العاشرة وابن الكسيس (وألكسيس هو الابن القتيل لبطرس الأكبر) ، ولكن أرملة بطرس التى لم تعرف القراءة والكتابة أقنعت حرس القصر (بدفعها رواتبهم التى طال تحلفها) بأنه عينها خلفاً له ، وبفضل تأييدهم أعلنت (٧ فبراير ١٧٢٥) توليها العرش بإسم كاترين الأولى ، إمبراطورة أقليم روسيا كلها . ولكن كاترين الصغرى هذه انغمست بعـــد ذلك فى الشراب والفسق . وكانت تحب الخمر حتى تغيب عن وعيها كل مساء ، وتمضى إلى فراشها عادة فى الخامسة صباحا ، وقد تركت زمام الحكم لعشيقها السابق الأمير الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ومعه مجلس أعلى ،— واضطلع الكونت أندراى أوسترمان ، الألمانى المولد ، بالشئون الخارجية ووجه روسيا إلى مصادقة ألمانيا والنمسا ومعاداة فرنسا . وعملا بمخططات

بطرس الأكبر ، زوجت كاترين إبنتها آنا بتروفنا لكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب ، وذهب العروسان ليعيشا فى كيل ، حيث ولدت آنا الغلام الذى صار فيما بعد بطرس الثالث . أما كاترين نفسها ، فقد ماتت فى ٦ مايو ١٧٢٧ شهيدة لذاتها ، بعد أن عينت خلفا لها الصبى بيوتر الكسيفيتش الذى اغتصب عرشه من قبل .

ولم يكن بطرس الثانى هذا يتجاوز الثانية عشرة ، فظل منشيكوف يواصل الحكم ، واستغل سلطاته فى الإثراء تحسبا للمستقبل . فهب لفيف من النبـــلاء بزعامة الأخوين إيفان وفاسيلى لوكيتش دولجوروكى فأطاحوا بمنشيكوف ونفوه إلى سيبيريا حيث مات فى ١٧٢٩ . ولم يمض عام حتى لقى بطرس الثانى حتفه بالجدرى ، وانتهى بموته صلب الذكور فى أسرة رومانوف . هذا الحادث المؤسف هو الذى أتاح لروسيا أن تحكمها على مدى ستة وستين عاما ثلاث نساء ضارعن ، أو فقن ، أكثر معاصريهن من الملوك كفاءة تنفيذية وآثارا سياسية ، وسبقنهم جميعا — باستثناء لويس الخامس عشر — فى مضمار العربدة الجنسية .

أما أولى هؤلاء القيصرات فهى آنا إيفانوفنا ، ابنة إيفان الكسيفيتش البالغـــة خمسة وثلاثين عاما ، وأبوها كان الأخ الأبله لبطرس الأكبر . وقد اختارها المجلس الأعلى لأنها اكتسبت سمعة واقية بالوداعة والطاعة . ووضع المجلس الذى كان يهيمن عليه آل دولجوروكى وجولتسين «شروطا» بعثوا بها إلى آنا وهى فى كورلاند ، لابد من قبولها لتثبيتها على العرش . فوقعت على الشروط (٢٨ يناير ١٧٣٠) . ولكن لا الجيش ولا الاكليروس أرادوا إحلال الاوليجركية محل الأوتقراطية . لذلك انطلق وفد من حرس القصر للقاء آنا ، والتمس منها أن تتقلد زمام السلطة المطلقة . فاستوحت الشجاعة من أسلحتهم ، ومزقت « الشروط » على مرأى من الحاشية .

وكانت آنا عديمة الثقـــة بالنبلاء الروس ، فاستقدمت من كورلاند الألمان الذين كانوا يمتعونها هناك . فأصبح إرنست فون بورن ، أو بيرون

عشيقها السابق رئيسا للحكومة ، ورد أوستر مان لرياسة الشئون الخارجية ، وأعاد الكونت خريستوف فون مونيش تنظيم الجيش ، وساعد لوفنفولدى وكورف ، وكيزرلنج ، على تطعيم نظام الحكم الجديد ببعض الكفاية الألمانية . فجمعت الضرائب بصرامة يقظة ، ووسع التعليم وأدخلت عليه التحسينات ، وهيء للدولة جهاز مدرب من الموظفين المدنيين . وبمثل هذه الفاعلية سجنت الحكومة الجديدة أو نفت أو أعدمت الدولجوروكيين والجولتسينيين .

وعاشت آنا عيشة منتظمة نسبيا ، بعد أن قنعت بعشيقين (بيرون ولوفنفولدى) ، فكانت تستيقظ فى الثامنة ، وتخصص ثلاث ساعات لشئون الحكم ، وتبتسم ابتسامة الرضى ، إذ يبسط رجالها الألمان سلطان روسيا . فغزا جيش يقوده مونيش بولنده ، وخلع ملكها ستانسلاس لسكزنسكى — الخاضع لتوجيه الفرنسيين — وأجلس على عرشه أوغسطس الثالث السكسونى ، واتخذ أول خطوة على طريق ربط بولنده بالروسيا . وردت فرنسا بأن حرضت تركيا على أن تهاجم روسيا ، ولكن السلطان تردد لانشغاله على جبهته الفارسية ، فرأت روسيا الفرصة مواتية لإعلان الحرب على تركيا ، وهكذا بدأت (١٧٣٥) ستون سنة من صراع السيادة على البحر الأسود . وشرح دبلوماسيو آنا الموقف فقالوا إن الاتراك ، أو من يلوذ بهم فى جنوبى روسيا ، فى يدهم مخارج الأنهار الخمسة الكبرى — دنيستر ، وبوج ، ودنيبر ، ودون ، وكوبان — التى كانت أهم مسالك التجارة الروسية المتجهة جنوبا ، وأن القبائل الإسلامية نصف الهمجية التى سكنت الاحواض الدنيا لهذه الأنهار هى خطر دائم يتهدد مسيحيى روسيا ، وأن الشواطىء الشمالية للبحر الاسود جزء طبيعى وضرورى من روسيا ، وأن شعبا عظيما ناميا كالشعب الروسى يجب ألا يحال بعد اليوم بينه وبين الوصول إلى البحر الأسود والبحر المتوسط دون معوق ، وقد ظلت هذه الحجج الأنشودة المتكررة التى ظلت تتغنى بها روسيا طوال ما بقى من القرن وما بعده .

أما أول الأهداف فكان القرم ، شبه الجزيرة الذى يقوم معقلا تركيا

على الجبهة الشمالية للبحر الاسود . وكان الاستيلاء على شبه الجزيرة تلك هو الغاية التى استهدفتها حملة مونيش عام ١٧٣٦ . وكان أعدى أعدائه فى هذه الحملة المسافات المترامية والمرض ... ذلك أنه كان عليه أن يعبر ٣٣٠ ميلا من القفار والبرارى التى لا تستطيع بلدة واحدة من بلادها أن تقـــدم الطعام أو الدواء لجيش عدته ٥٧,٠٠٠ مقاتل ، وكان لزاماً أن ترافقهم ثمانون ألف عربة فى طابور طويل معرض فى أى نقطة أو لحظة لهجوم قبائل التتار عليه . واستطاع مونيش بفضل قيادته الماهرة أن يستولى فى تسعة وعشرين يوما على بريكوب ، وكوسلوف ، وبخشيسراى (عاصمة القرم) ، ولكن فى ذلك الشهر تفشت الدوسنطاريا وغيرها من الأمراض فى جيشه فأحدثت من الشقاء والتمرد بين رجاله ما أكرهه على التخلى عن فتوحه والتقهقر إلى أوكرانيا ، واستولى أثناء ذلك قائد آخر من قواد آنا على آزوف المشرفة على مصب نهر دون .

وكر مونيش على الجنوب فى أبريل ١٧٣٧ بسبعين ألف مقـــاتل ، واستولى على أوخاكوف ، قرب مصب نهر بوج . وفى يونيو انضمت إليه النمسا فى مهاجمة الترك ، ولكن حملتها باءت بفشل ذريع ألجأها إلى إبرام صلح منفرد ، أما روسيا التى تركت فجأة لتواجـــه الجيش التركى برمته ، والتى كانت تتوقع حربا مع السويد ، فقد وقعت (١٨ سبتمبر ١٧٣٩) صلحا رد إلى الأتراك تقريبا كل ما كسبه الروس فى حملات ثلاث . واحتفل بالمعاهدة فى سانت بطرسبرج على أنها إنتصار باهر لم يكلف أكثر من مائة ألف قتيل .

وعاشت آنا سنة بعد الحرب . وقبيل موتها عينت وريثا للعرش ، إيفان السادس ، الغلام الذى لم يتجاوز عمره ثمانية أسابيع : وهو ابن بنت أختها آنا ليوبيولدوفنا الألمانية المولد وأنطون أولريش أمير برنزويك . وأوصت أن يكون بيرون وصيا على إيفان حتى يبلغ السابعة عشرة . ولكن مونيش وأوسترمان كانا الآن قد نالهما من بيرون ما يكفى . فانضما إلى أولريش وليوبولدوفنا ونفوه إلى سيبيريا (٩ نوفمبر ١٧٤٠) . وأصبحت

آنا ليوبولدوفنا وصية ، ومونيش « الوزير الأول » . وخشى السفيران الفرنسى والسويدى أن يسيطر التيوتون على روسيا سيطرة كاملة ، فمولا ثورة يقوم بها الأشراف الروس . واختار الثوار سراً مرشحاللعرش اليزافيتا بتروفنا إبنة بطرس الأكبر وكاترين الأولى .

وكانت اليزابث ، كما سندعوها هنا ، فى الثانية والثلاثين من عمرها ، ولكنها فى أوج حسنها وشجاعتها ونشاطها ، تحب الألعاب الرياضية والتدريب العنيف ، ولكنها أيضاً ولوعة بمتع الغرام ، وقد رفهت عن سلسلة من العشاق ، ولم تظفر بقدر يذكر من التعليم ، وكانت تكتب الروسية بصعوبة وتتكلم الفرنسية بطلاقة . ويبدو أن فكرة تشريفها العرش لم تخطر لها ببال إلى أن نحتها آنا ليوبولدوفنا وأوستر مان جانبا مؤثرين عليها الأجانب . فلما أمرت الوصية فرق سانت بطرسبرج بالرحيل إلى فنلندة ، وتذمر الجند لأنهم سيواجهون حرب شقاء ، اغتنمت اليزابث الفرصة ، فلبست الزى العسكرى ، وقصدت ثكنات الجند فى الساعة الثانية من صباح ٦ ديسمبر ١٧٤١ ، وناشدتهم أن يناصروها ، ثم ركبت مركبة الجليد الى القصر الشتوى على رأس فوج من الجيش وأيقظت الوصية ، وزجت بها هى والقيصر الطفل فى السجن . فلما استيقظت المدينة وجدت أن لها حاكماً جديداً ، إمبراطورة روسية خالصة ، وابنـــة لبطرس العظيم . واغتبطت روسيا وفرنسا بهذا الحدث .

٤ — اليزابث بتروفنا

١٧٤١ — ٦٢

من العسير فهم هذه المرأة خلال ضباب الزمن والأهواء . وحين لقيتها كاترين الثانية فى ١٧٤٤ « راعها منها جمالها وجلال سلوكها . . ومع أنها كانت بدينة جداً ، فإن بدانتها لم تنل قط من حسنها أو تجعل حركتها ثقيلة مضطربة . . . رغم ارتدائها طوقاً هائلا لتنورتها حين تكتمل زينتها[٢٦] » . وكانت تبطن الشكوكية إلى شفا الإلحاد[٢٧] ، وتظهر الغيرة

على الديانة التقليـــدية . وقد لاحظ مراقب فرنسى « ميلهـــا السافر للشراب »[٢٨] ، ولكن علينا أن نتذكر أن روسيا بلداً بارداً وأن الفودكا تدفىء شاربها . وقد رفضت أن تتزوج مخافة أن يبدد الزوج قوتها ويضاعف من أسباب الخلاف والخصومة . ويزعم البعض أنها تزوجت سراً الكسيس رازموفسكى ، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لم يكن سوى الأول بين أقران عديدين . وكان فيها غرور وخيلاء ، وولع بالحلى والملابس المبهرجه ، ولها خمسة عشر ألف ثوب ، وأكوام من الجوارب ، و ٢٥٠٠ حذاء[٢٩] ، وقد استعملت بعضها قذائف أثناء النقاش ، وكان فى استطاعتها أن توبخ خدمها وحاشيتها بلغة السوقة ، وقد صدقت على بعض العقوبات القاسية ، ولكنها كانت فى سريرتها رحيمة الفؤاد[٣٠] . ألغت عقوبة الإعدام إلا على جريمة الخيانة (١٧٤٤) ، ولم تسمح بالتعذيب إلا فى أخطر المحاكمات ؛ أما عقوبة الجلد فقد بقيت نافذة ، ولكن اليزابث كانت تشعر أنه لابد من إيجاد وسيلة لتثبيط المجرمين الذين جعلوا الطرق العامة وشوارع المدن غير مأمونة فى الليل ، وقد جمعت فى طبعها بين القلق والكسل ، ووهبت ذكاء فطرياً حاداً ، وأعطت وطنها خير حكومة سمحت بها حالة التعليم والأخلاق والعادات والاقتصاد الروسى .

وبعد أن نفت أوسترمان ومونش إلى سيبيريا ، أعادت مجلس الشيوخ إلى سلطة القيادة الإدارية ، ووكلت الشئون الخارجية إلى ألكسى بتروفيش بستوزيف — ريومين . وقد وصفته كاترين الثانية بأنه « دساس كبير ، سيئ الظن بالناس ، حازم جرىء فى مبادئه ، عدولا يعرف الصفح ، ولكنه صديق صدوق لأصدقائه »[٣١] . وكان مشغوفا بالمال كما يشغف به عادة من يعرفون أن سمو المنصب قد يفضى إلى السقوط ، وحين حاولت انجلترة أن ترشوه قدرت أن نزاهته تكلف ١٠٠ر٠٠٠ كراون[٣٢] . ولا علم لنا إن كانت الصفقة قد تمت ، ولكن بستوزيف وقف بوجه عام فى صف انجلترة ولكن هذا كان ردا طبيعيا على تأييد فرنسا للسويد وتركيا ضد روسيا . وقد عرض فردريك الأكبر هو الآخر على بستوزيف ١٠٠ر٠٠٠ كراون إن ألف بين روسيا وبروسيا ، ولكن العرض رفض[٣٣] . وبدلا منه

ألف بستوزيف بين روسيا والنمسا (١٧٤٥) وانجلترة (١٧٥٥) . فلما أتبعت انجلترة هـذا بتحالف مع بروسيا (١٦ يناير ١٧٥٦) تهدم بناء الأحلاف الذى أقامه بستوزيف ، وأهملت الزابث بعدها الأخذ بنصائحة ، وربطت وزارة جديدة روسيا بحلف فرنسى — نمساوى كان «نقضا للأحلاف» السابقة : وكانت رحى حرب السنين السبع دائرة .

وقد رأينا فى موضع سابق من هذا الكتاب — وما أبعد الشقة بيننا وبينه — كيف هزم القائد الروسى أبراكسين البروسيين فى جروس بيجرزدورف (١٧٥٧) ، ثم سحب جيشه إلى بولندة . وأقنع سفيرا فرنسا والنمسا الزابث بأن بستورزيف كان قد أمر بتقهقر ابراكسين وأنه يتآمر لخلعهما . فأمرت بالقبض على المستشار والقائد جميعا (١٧٥٨) . ومات ابراكسين فى السجن ، وأنكر بستورزيف التهمتين ، وقد برأت ساحته المعلومات التى أنيط عنها اللثام فيما بعد . وأراد خصومه أن يعذبوه ليعترف ، ولكن الزابث كفتهم ، وحل ميخائيل فورونستوف محل بستوزيف مستشارا .

وفى غمار حفلات البلاط الراقصة ، ومؤامرات قهاره ودسائسه وغيراته وأحقاده ، كانت الزابث تشجع معاونيها على دفع المدنية الروسية قدما . ففتح محسوبها الشاب ايفان شوفالوف جامعة فى موسكو ، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية ، وأوفد الطلاب فى بعثات للخارج للدراسات العليا فى الطب ، واستقدم المعماريين والمثالين والمصورين الفرنسيين لأكاديمية الفنون (Akademia Iskustv) التى أقامها فى العاصمة (١٧٥٨) . وقد تبادل الرسائل مع فولتير ، وأغراه بتأليف « تاريخ الإمبراطورية الروسية فى عهد بطرس الأكبر » (١٧٥٧) . أما أخوه بيوتر شوفالوف فقد أعان الاقتصاد بإلغاء المكوس على التجارة الداخلية . على أن الزابث سمحت أثناء ذلك للتعصب الدينى بأن يزداد إرضاء لدعاة الجامعة السلافية ، فأغلقت بعض المساجد فى أقاليم التتار ، ونفت ٣٥٫٠٠٠ يهوديا .

وكان أكبر مآثرها انتصار جيوشها وقوادها المرة بعد المرة على فردريك

الثانى ، ووقفهم الزحف البروسى ، وأشرافهم على سحقه لولا أن هد تدهور صحتها من قدرتها على حمل التحالف الفرنسى النمساوى الروسى على التماسك كتب السفير البريطانى فى تاريخ مبكر (١٧٥٥) يقول : « لقد ساءت صحة الإمبراطورية وأصيبت ببصق الدم والنهج ، وبالسعال المستمر ، وبالأرجل المتورمة . وبالماء فى رئتيها ، ومع ذلك فقد رقصت « منويتا معى » .[٣٤] وراحت الآن تدفع ثمنا باهظا لإيثارها حياة الفسق على الزواج . وإذ كانت بغير خلف ، فقد طالما بحثت عن شخص من دم ملكى يستطيع التصدى لمشاكل روسيا الخارجية والداخليـــة ، فوقع اختيارها — وهو اختيار لا يمكن تفسيره — على كارل فريدرش أولرش ، ابن اختها آنا بتروفنا وكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب . وكانت هذه أكبر غلطة اقترفتها فى حكمها ، ولكنها كفرت عنها باختيارها لشريكة حياته .

٥ — بطرس وكاترين

١٧٤٣ - ٦١

ولد بيوتر فيودوروفتش ، كما أعادت اليزابث تسمية وريثها ، بمدينة كيل فى ١٧٢٨ . وكان بوصفه حفيدا لبطرس الأكبر ولشارل الثانى عشر كليهما صالحا لارتقاء العرشين الروسى والسويدى . وقد ألزم البيت لضعف صحته حتى بلغ السابعة ، ثم اختير بتغيير فجائى للانضمام إلى حرس هولشتين ونشىء على حياة الجندية . وأصبح رقيبا فى التاسعة ، وكان يسير شامخ الرأس فى العروض الميدانية ، وتعلم لغة ضباط الجيش وأخلاقهم . وحين ناهز الحادية عشرة عين له مرب ألمانى نشأه على الإيمان اللوثرى بصورة لا تنسى ، وأسرف فى تأديبه إسرافا أصابه بالعصاب . وإذ أرهبه هذا المربى بعنفه ، فقد انطوى على الجبن والتكتم ، ولاذ بالمكر والخداع ،[٣٥] وبات « دائم النزق والعناد وحب الشجار »[٣٦] . ولعل روسو كان مستشهدا به مثالا يوضح الزعم بأن الإنسان خير بالفطرة ولكن البيئة السيئة هى التى تفسده . ذلك أن بطرس كان رقيق الفؤاد ، يتمنى أن يسلك المسلك الحق ، كما سنرى من

مراسيمه الملكية ، ولكن دمره ما فرض عليه من القيام بأدوار لا تناسبه . وحين التقت به كاترين الثانية وهو فى الحادية عشرة وصفته بأنه « وسيم الطلعة حسن السلوك مجامل » وقالت « أنها لم تشعر بأى نفور من فكرة الزواج به » . (٣٧)

وفى ١٧٤٣ أمرت اليزابث بأن يؤتى به إلى روسيا ، وخلعت عليه لقب الغراندوق ، ويبدو أنها أدخلته فى المذهب الأرثوذكسى ، وحاولت تدريبه على شئون الحكم . ولكنها « وقفت مشدوهة » لفقر تعليمه واهتزاز شخصيته وفى سانت بطرسبرج أضاف السكر عيبا إلى عيوبه الأخرى ، وراود الأمل اليزابث بأن هذا الفتى الغريب قد يتاح له ، إذا زوج بامرأة صحيحة البدن ذكية الفؤاد ، أن ينجب قبل وفاة اليزابث قيصرا كفؤا لروسيا فى مستقبل أيامه. وبهذه الروح المجردة من التعصب العرقى ، والتى اتسمت بها الاستقراطيات الأوروبية حتى أثناء قيام الدول القومية ، اتجهت اليزابث ببصرها خارج روسيا ، فوقع اختيارها على أميرة مغمورة من إحدى الإمارات الألمانية الصغرى . وكان فريدريك الثانى الماكر قد أوصى بهذا الاختيار أملا فى أن يظفر بقيصرة ألمانية صديقة فى روسيا التى أصبحت الآن مبعث خوف لألمانيا.

وعند هذه النقطة تواجهنا مذكرات كاترين الكبرى ، وهى مذكرات لا يتطرق الشك إلى صحة نسبتها إليها ، لم تطبع حتى عام ١٨٥٩ ، ولكن المخطوطة الفرنسية التى كتبتها كاترين بخط يدها محفوظة بدار المحفوظات القومية فى موسكو فهل هى جديرة بالثقة ؟ إن القصة التى ترويها هذه المذكرات تؤيدها على العموم مصادر أخرى . (٣٨) وعيبها ليس الكذب بل التحيز فهى قصة أجادت روايتها بذكاء وحيوية ، ولكنها فى بعضها دفاع عن خلعها زوجها ، وعن احتمالها نبأ قتله بمثل ما احتملته به من رباطة جأش .

وقد ولدت فى شتتن بيومرانيا فى ٢١ ابريل ١٧٢٩ وسميت عند تعميدها صوفيا أوجستا فردريكا بأسماء ثلاث عمات لها . أما أمها فكانت يوهانا اليزابث أميرة هولشتين — جوتورب ، ومن طريقها كانت كاترين ابنة

خالة بطرس . أما أبوها فكان كرستيان أوجست ، أمير انهالت — تسربست فى وسط ألمانيا ، واللواء فى جيش فردريك . وقد خاب أمل أبويها لولادة بنت لا ولد ، وحزنت الأم كأنها أسقطت جنينا . أما كاترين فقد كفرت عن أنوثتها باتخاذها فحولة القادة العسكريين وحنكة الأباطرة الحاكمين ، بينما ظلت طوال ذلك أكثر العشيقات فى أوربا طلابا وأقربهن منالا .

كانت تشكو ألوانا من أمراض الطفولة ، ومنها مرض اشتد عليها حتى خلفها تبدو للناظرين كأنها ستظل مشوهة ما بقى لها من العمر « فى عمودها الفقرى تعرج » و « وكتفها اليمنى أعلى كثيرا من اليسرى » ، وأصبحت الآن « تتخذ شكل حرف Z » فحبسها جلاد المدينة السابق ، الذى تخصص فى علاج انخلاع المفاصل ، فى مشد (كورسيه) « لم أكن أخلعه قط نهارا ولا ليلا إلا حين أغير ملابسى الداخلية ، و وبعد ثمانية عشر شهرا بدأت أبدى علامات على استقامة عودى » . (٣٩) ولكثرة ما تردد فى سمعها أنها دميمة ، صممت على أن تنمى ذكاءها بديلا عن الجمال ، فكانت مثالا آخر من أمثلة النقص الذى يشعر به صاحبه فيحفزه إلى قدرات تعويضية . واختفت دمامتها حين لف البلوغ أعضاءها فاستدارت . وكانت رغم هذه الخطوب ذات « طبع رضى » وفيها من الفرح الفطرى « مااستلزم ضبطه » . (٤٠)

تلقت تعليمها على مهذبين نخص منهم بالذكر قسيسا لوثريا كان يلقى علنا من أسئلتها . مرة سألته « أليس من الظلم أن يحكم على تيطس ، وماركوس أوريليوس ، وجميع عظماء العالم القديم بالهلاك الأبدى رغم فضلهم ، لأنهم لم يعرفوا شيئا عن رؤيا يوحنا اللاهوتى ؟ » وكانت تحسن الجدل إلى حد حمل معلمها على أن يعتزم جلدها لولا تدخل إحدى المربيات . وقد أرادت بصفة خاصة أن تعرف شكل تلك الهيولى التى سبقت الخليقة كما ورد فى سفر التكوين . « ولكن إجاباته لم تبد قط مقنعة » و « فقد كلانا أعصابه » ، وزاد انزعاجه بإصرارها على أن يفسر لها « بالضبط معنى الختان » (٤١) وكان معلموها الآخرون ومربيها فرنسيين ، لذلك أتقنت

الفرنسية ، فقرأت كورنيي ، وراسين ، وموليير ، وكان واضحا أنها مهيأة لقراءة فولتير . وهكذا أصبحت من أفضل نساء عصرها تعليما .

وانتهى نبأ هذه الأميرة الذكية إلى الإمبراطورة اليزابث ، وكانت تواقة إلى فتاة قد تمنح بطرس الذكاء بالتناضح . ففى أول يناير ١٧٤٤ وصلت إلى أم صوفيا دعوة للحضور معها فى زيارة للبلاط الروسى . وتردد الوالدان ، فقد بدت لهما روسيا بلداً قلقاً بدائياً إلى حد خطر ، أما صوفيا التى حدست أن زواجها من الفرندوق قيد البحث فقد التمست الجواب بقبول الدعوة . وعليه ففى ١٢ يناير بدأوا الرحلة الطويلة الشاقة عبر برلين وشتتن وبروسيا الشرقية وريجا وسانت بطرسبرج إلى موسكو . وفى برلين استضافهم فردريك ، وأعجبته صوفيا ، « وراح يسألنى ألف سؤال ويتكلم على الأوبرا والكوميديا والشعر والرقص ، وباختصار كل شىء يمكن أن يخطر ببال إنسان يتحدث إلى فتاة فى الرابعة عشرة[٤٢] » وفى شتتن « ودعنى أبى ، وكانت آخر مرة رأيته فيها ، وقد بكيت بكاء مراً » . وبلغت الأم وابنتها موسكو فى ٩ فبراير فى حاشية مترفة ، بعد رحلة فى مركبة جليد امتدت اثنتين وخمسين ساعة من سانت بطرسبرج .

وفى ذات المساء التقت ببطرس ثانى مرة ، وقد وقع من نفسها هذه المرة أيضاً موقعاً طيباً ، إلى أن أسر لها أنه لوثرى صميم ، وأنه يحب إحدى الوصيفات فى البلاط[٤٣] . ولاحظت أن الروس يكرهون لهجته وعاداته الألمانية ، أما هى فقد عولت على تعلم الروسية والتمكن منها ، وعلى قبول المذهب الأرثوذكسى بحذافيره وشعرت بشىء « أكثر قليلا من عدم المبالاة نحو بطرس ، ولكن « لم أكن غير مبالية بالتاج الروسى » . وعينوا لها ثلاثة مدرسين — للغة ، وللدين ، وللرقصات الروسية . وقد شقت على نفسها فى الدرس — فنهضت مرة فى منتصف الليل للاستذكار — حتى ألزمت الفراش لإصابتها بذات الجنب ، « وظللت أتذبذب بين الحياة والموت سبعة وعشرين يوماً ، فصدت خلالها ست عشرة مرة ، أحياناً أربع مرات فى اليوم »[٤٤] . وفقدت أمها حظوتها فى البلاط لأنها طلبت استدعاء قسيس

لوثرى . أما صوفيا فقد كسبت قلوباً كثيرة بطلبها قسيساً يونانياً . وأخيراً ، فى ٢١ أبريل ، استطاعت أن تظهر أمام الناس . «كنت هزيلة كأننى هيكل عظمى . . . فى وجهى وقسماتى غضون ، وشعرى ساقط ، ولونى غاية فى الشحوب »[٤٥] وأرسلت لها الأمبراطورة ملء قدر من « الروج » .

وفى ٢٨ يونيو جازت صوفيا ، فى خشوع مؤثر ، مراسم دخولها فى المذهب الأرثوذكسى . وأضيف الآن إلى أسمائها إسمان هما إكاترينا ألكسيفنا ؛ ومن ثم أصبحت منذ الآن تدعى كاترين . وفى صباح الغد ، وفى الكتدرائية الكبرى ، « أوسبنسكى سوبور» ، خطبت رسمياً للغرندوق بطرس . وابتهج كل من رآها بتواضعها اللبق ، وحتى بطرس بدأ يحبها . وبعد أربعة عشر شهراً من التدريب تزوجا فى ٢١ أغسطس ١٧٤٥ فى سانت بطرسبرج . وفى ١٠ أكتوبر رحلت أم كاترين قاصدة أرض الوطن .

وكان بطرس الآن فى السابعة عشرة ، وزوجته فى السادسة عشرة . كانت جميلة ، وكان قبيحاً لأنه أصيب بالجدرى فى سنة خطبتهما . وكانت من الناحية الفكرية شرهة يقظة ، أما هو فيقول سولوفيف إنه « بدت عليه كل أمارات التخلف العقلى ، وكان أشبه بطفل كبير »[٤٦] : يلهو بالدمى والعرائس والعساكر اللعب ، ويولع بالكلاب حتى أنه يحتفظ بعدد منها فى شقته ، ولم تعرف كاترين أيهما شر من الآخر ، نباحها أم رائحتها المنتنة[٤٧]. ولم يحسن الموقف بالعزف على كمانه . وازداد ميله للشراب ؛ « و منذ ١٧٥٣ كان يثمل بالشراب كل يوم تقريباً »[٤٨] وكثيراً ما كانت الإمبراطورة اليزابث توبخه على نقائصه ، ولكنها لم تضف القدوة إلى الوصية . وكان الذى يزعجها أكثر هو كرهه السافر لروسيا التى سماها « بلداً لعيناً »[٤٩] ، واحتقاره للكنيسة الأرثوذكسية وقساوستها ، وأهم من هذا كله عبادته لفردريك الأكبر ، حتى أثناء اشتباك روسيا وبروسيا فى حرب طاحنة ، وأحاط نفسه بـ « حرس هولشتينى » من الجند كلهم تقريباً ألمان ، وفى بيب لهوه بأورانينباوم كان يلبس إتباعه الزى الألمانى ، ويدربهم على الطريقة البروسية . وحين هرم القائدان الروسيان فرمور وسالتيكوف

البروسيين عام ١٧٥٩ أمسكا عن متابعة إنتصاراتهما مخافة أن يغضبا بطرس [٥٠] الذى قد يصبح قيصراً فى أية لحظة .

وكاد زواجهما أن يصبح صراعا بين ثقافتين ، لأن كاترين كانت تسعى إلى المزيد من التعليم بدراسة الأدب الفرنسى . ويبدو أمراً لا يصدق أن تقرأ هذه الشابة خلال سنيها التعسة وهى غراندوقة أفلاطون وبلوتارخ وتاسيتوس وبيل وفولتير وديدرو ومونتسكيو الذى قالت عن كتابه « روح القوانين » إنه ينبغى أن يكون « كتاب صلوات يومية لكل ملك سليم الإدراك » [٥١] ولا بد أن كتبا كهذه أتت على البقية الباقية من معتقدات كاترين الدينية — رغم أنها واصلت دون توان مراعاتها للطقوس الأرثوذكسية وأعطتها هذه الكتب ذلك المفهوم عن « الاستبداد المستنير » الذى تشربه فردريك من فولتير قبل ذلك بجيل .

وخلال ذلك (إن صدقنا روايتها المباشرة) « لم يصل زواجى بالغراندوق إلى نقطة الاكتمال » [٥٢] وفى رأى كاستيرا الذى كتب فى ١٨٠٠ سيرة لكاترين تنبىء باطلاع حسن كما تتسم بالعداء لها ، أن « بطرس كان يشكو عيباً بدا رغم سهولة إزالته أشد قسوة ، ولم يستطع عنف حبه ولا محاولاته المتكررة أن يحققا نقطة الاكتمال فى زواجه . [٥٣] وهذه الحالة لها نظير لافت للنظر ، هى حالة لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت . وربما كان النفور الذى انتهت كاترين إلى الإحساس به نحو بطرس خلال خطبتهما الطويلة قد وضح له وأورثه العنة النفسية . وسرعان ما اتجه إلى نساء أخريات ، واتخذ الخليلة تلو الخليلة ممن راودهن الأمل فى الحلول محل الغراندوقة كاترين . وفى روايتها أن سنوات الزواج الأولى هذه كانت سنوات شقاء وتعاسة لها . وذات يوم (فيم يروى هوراس ولبول) ، حين سألتها الإمبراطورة لم يثمر زواجها ، أجابت بأنه ينبغى ألا ينتظر أى ثمر له . وكان هذا فى الواقع إعلاناً لعجز زوجها . وأجابت إليزابث بأن الدولة تطالب بالخلف ، وتركت للغراندوقة مهمة الحصول على هذا الخلف

بمساعدة من تشاء . وكانت ثمرة طاعتها والدا وبنتا . «[٥٤] وقد بينت مدام ماريا تشوجلوكوفا ، التى عينتها إليزابث وصيفة لكاترين ، للغراندوقة (فيما روته هذه) أن هناك استثناءات هامة لقاعـــدة الوفاء الزوجى ، ووعدتها بأن تكتم السر إذا اتخذت كاترين عشيقا ، [٥٥] و (« لا ريب فى أن هذا الاقتراح المخجل لم يأت من الوصيفة بل من الامبراطورة ذاتها[٥٦] ». وعلينا أن ننظر إلى هذه الأمور فى منظور بلاط روسى طال إلفه لملكات عديدات العشاق ، وبلاط فرنسى تعود على ملوك متعددى العشيقات ، وبلاط سكسونى — بولندى ضم مائة وخمسين طفلا أنجبهم أو غسطس الثالث .

فهل اقتدت كاترين بهذه المثل إلى درجة الإفراط ؟ بعد ولايتها العرش ، نعم . أما قبلها فيبدو أنها إقتصرت فى قصد رواق على ثلاثة عشاق — أولهم — بعد زواجها بنحو ست سنوات — سرجى سالتيكوف ، الضابط الشاب المفعم حيوية . وتشرح كاترين استجابتها لحبه فتقول :

« إن جاز لى توخى الصراحة .... قلت إننى كنت أجمع بين عقل الرجل ومزاجه ، وبين مفاتن المرأة الجديرة بأن تحب . وأرجو الصفح عن هذا الوصف ، الذى يبرره صدقه ... فلقد كنت جذابة ، ومن ثم كان نصف الطريق إلى الأغراء قد قطع فعلا ، ومن الانسانية الخالصة فى مثل هذه المواقف ألا يقف الإنسان فى منتصف الطريق .... فالمـــرء لايستطيع أن يمسك بقلبه فى يده ، يحبسه أو يطلقه ، يشد عليه قبضته أو يرخيها كما يشاء . » [٥٧]

وفى ١٧٥١ حملت ولكنها أسقطت حملها ، وتكررت هذه التجربة المؤلمة فى ١٧٥٣ . وفى ١٧٥٤ ولدت الطفل الذى صار فيما بعد الإمبراطور بولس الأول . واغتبطت اليزابث ، وأهدت كاترين ١٠٠٫٠٠٠ روبل ، وأرسلت سالتيكوف ليبزوى انزواءآ مأمونا فى استكهولم ودرسدن ، حيث كان « عابثا مستهترا مع جميع النساء اللاتى قابلهن » [٥٨] كما تروى كاترين .

أما بطرس فازداد سكرا ، واتخذ مزيدا من الخليلات ، واستقر أخيرا على اليزافينا فوروتسوفا ، ابنة أخى المستشار الجديد . وكانت كاترين تتشاجر معه ، وتسخر منه ومن أصدقائه علانية . (٥٩) وفى ١٧٥٦ قبلت ملاطفة فتى بولندى وسيم فى الرابعة والعشرين يدعى الكونت ستانسلاس بونياتوفسكى ، قدم إلى سانت بطرسبرج ملحقا للسير هانبرى — وليمز ، السفير البريطانى . وتصفها سيرة ستانسلاس الذاتية فى سنة ١٧٥٥ :

« كانت تناهز الخامسة والعشرين . .. فى تلك اللحظة بالذات التى هى أجمل اللحظات للنساء الجميلات . كان لها شعر فاحم ، وبشرة بيضاء ناصعة وأهداب سوداء طويلة ، وأنف إغريقى ، وفم كأنه خلق للقبلات ، ويدان وذراعان غاية فى الحسن ، وقد نحيل يغلب فيه الطول على القصر ، ومشية غاية فى النشاط ملؤها المهابة رغم هذا .وكان رنين صوتها مبهجاً ،وضحكتها مرحة كطبعها » (٦٠) .

فلما حدق النظر فيها « نسى أن هناك قطرا اسمه سيبيريا . « وكان هذا الغرام أعمق ماشعرت به من غراماتها الكثيرة ، وغراماته هو ، فقد ظل قلبها مع يونياتوفسكى بعد أن اتخذت عشاقاً آخرين بزمن طويل ، أما هو فلم يفق قط تماماً من افتتانه بها ، مهما أنزلت به سياساتها من آلام موجعة. وحين ذهبت لتقيم مع بطرس فى أورانينباوم ، خاطر ستانسلاس بحياته بزيارتها سرا هناك . وكشف أمره ، وأصدر بطرس أوامره بشنقه . غير أن كاترين تشفعت لبطرس بخليلته التى هدأت ثائرة الغراندوق بعد أن ألانتها هدية من كاترين . وأخيراً ، وفى نوبة من الود ، لم يكتف بطرس بالصفح عن يونياتوفسكى ، بل دعا كاترين للانضمام إلى عشيقها ،ودخل معهما ومع اليزافيتا فورونتسوفا فى « معيشة رباعية » لطيفة تخللتها عشاءات مرحة اشتركوا فيها جميعاً (٦١) .

وفى ٩ ديسمبر ١٧٥٨ ولدت كاترين بنتا . واعتقد أفراد الحاشية عموماً أن أباها هو بونياتوفسكى(٦٢) ولكن بطرس نسب الفضل لنفسه ،

وتقبل التهانى ، ونظم المهرجانات احتفالا بهذا الانجاز [٦٣] ، ولكن الطفلة ماتت بعد أربعة أشهر. واستدعى بونياتوفسكى إلى بولندة بأمر الامبراطورة، وحرمت كاترين العشق هنيهة ، ولكنها افتتنت بمغامرات الحب والحرب التى خاضها جريجورى جريجوريفتش أورلوف ،ياور بيوتر شوفالوف .وكان أورلوف قد كسب لنفسه حسن السمعة بثباته فى موقعه فى معركة زورندورف رغم جروحه الثلاثة . وكان له بنية الرجل الرياضى و « وجه ملاك »[٦٤]، ولكنه لم يعرف من المناقب إلا الظفر بالسلطة والنساء بأى وسيلة متاحة . وكان لشوفالوف خليلة هى الأميرة إلينا كوراكين ، وكانت من أجمل حسان القصر وأكثر هن تحللا ، فاجتذبها أورلوف وظفر بها من رئيسه ، وأقسم شوفالوف أنه قاتله ، ولكنه مات قبل أن ينفذ فيه وعيده . وأعجبت كاترين بشجاعة أورلوف ، ولاحظت أن له أربعة أخوة فى الحرس كلهم قوى فارع الطول ، وقالت فى نفسها إن هؤلاء الخمسة سيفيدون إذا طرأ طارىء . وعليه رتبت لقاء مع جريجورى ، ثم ثانيا ، فثالثاً ، وسرعان ما أزاحت كوراكين واحتلت مكانها . ولم يحل يوليو ١٧٦١ حتى كانت حاملا ، وفى أبريل ١٧٦٢ ولدت ابنا لأورلوف ، وأحيط الحدث بما أمكن من تكتم ، وربى الغلام باسم الكسيس بوبرينسكى .

وفى ديسمبر ١٧٦١ وضح أن الامبراطورة بادئة مرضها الأخير ، وبذلت محاولات لإشراك كاترين فى مؤامرة تستهدف منع بطرس من ارتقاء العرش ، وقد أنذرت بأن بطرس إن أصبح قيصرا سينحيها جانباً ويجعل الزافيتا فورونتسوفا زوجته ومليكته ، ولكن كاترين رفضت الاشتراك فى المؤامرة . وفى ٥ يناير ١٧٦٢ (حسب التقويم الجديد) ماتت الامبراطورة اليزابث ، وارتقى العرش بطرس دون معارضة سافرة .

٦ — بطرس الثالث

١٧٦٢

وقد أدهش الجميع بسماحة قراراته ؛ فالود الفطرى الذى حجبه ضباب العادات الفظة الغبية تكشف الآن فى نوبة من العرفان لتقلده السلطة بسلام ،

فصفح عن أعدائه ، واستبقى معظم وزراء اليزابث ، وحاول أن يتلطف مع كاترين . فخصص لها فى القصر جناحا مريحا فى طرف منه ، وسكن هو جناحا فى الطرف الآخر . وخصص لخليلته الغرف الوسطى ، وكان هذا بالطبع إهانة بالغة ، ولكن كاترين ابتهجت فى دخيلة نفسها بسكناها على مبعدة منه . وزودها بمخصصات سخية ، ودفع ديونها الباهظة دون تحقيق فى أصلها . (٦٥) وفى الحفلات الرسمية كان يسوى بينها وبينه فى المكان وأحيانا يقدمها على نفسه . (٦٦)

ثم أعاد من المنفى الرجال والنساء الذين نفاهم الحكام السابقون إلى سيبيريا فعاد الآن مونيش وقد بلغ الثانية والثمانين ليرحب به اثنان وثلاثون حفيدا ، ورده بطرس إلى رتبة المشير ، وأقسم مونيش ليخدمنه إلى النهاية ، وقد بر بقسمه . وأحل الإمبراطور السعيد النبلاء من الالتزام الذى فرضه عليهم بطرس الأكبر ، وهو أن يعطوا الدولة سنين كثيرة من حياتهم ، فاقترحوا أن يصنعوا له تمثالا من الذهب ، ولكنه أمرهم أن يستعملوا هذا الذهب استعمالا أرشد . (٦٧) وألغى مرسوم أصدره بطرس فى ٢١ فبراير بالشرطة السرية التى أبغضها الناس جميعا ، وحرم الاعتقال لأتهم السياسية حتى يراجعها مجلس الشيوخ ويقرها . وفى ٢٥ يونيو أصدر بطرس مرسوما بأن يعفى مقترف الزنا من التعنيف الرسمى منذ الآن ، «فحتى المسيح لم يدن (الزانية) فى ذلك الأمر » . (٦٨) وابتهجت الحاشية ، وسر التجار لتخفيض رسوم التصدير ، وخفض ثمن الملح ، وأبطل شراء الأقنان لتشغيلهم فى المصانع أما « قدامى المؤمنين » الذين هربوا من روسيا اتقاء اضطهادهم فى عهد اليزابث فقد دعوا للعودة والتمتع بالحرية الدينية . ولكن رجال الدين أثارت سخطهم الشديد مراسيم ١٦ فبراير و ٢١ مارس التى أممت جميع أراضى الكنيسة وجعلت جميع القساوسة الأرثوذكس موظفين حكوميين ذوى رواتب . وحرر الأقنان العاملون على ضياع النبلاء أن يحرروا هم أيضا سريعا . ووسط هذه الإصلاحات كلها — التى أشار بها عليه مختلف الوزراء — راح بطرس يشرب حتى يثمل .

أما أغرب قراراته الذى أسعده أيما سعادة ، فهو إنهاؤه الحرب مع بروسيا . وكان حتى قبل ولايته العرش قد فعل الكثير ليساعد فردريك ، فأوصل سرا الخطط الحربية التى وضعها مجلس اليزابث ، وراح الآن يفاخر بعمله هذا [٦٩] وفى ٥ مايو ربط الروسيا ببروسيا فى تحالف دفاعى هجومى. وأصدر تعليماته إلى قائد القوات الروسية المحاربة مع الجيش النمساوى أن يضعها فى خدمة « سيدى الملك » [٧٠] ثم ارتدى بزة عسكرية بروسية ، وأمر الجنود المحليين بأن يحذوا حذوه ، ثم أدخل الضبط والربط البروسيين فى الجيش ، ونظم التدريبات العسكرية كل يوم لحاشيته ، وأجبر كل ذكر فى الحاشية على المشاركة فيها دون مراعاة للسن أو النقرس [٧١] . وقدم « حرس هولشتين » الخاص به على أفواج العاصمة المعتدة بمكانتها .

ولم يكن الجيش الروسى كارها للسلم ، ولـــكن أذهله هجر روسيا لحلفائها الفرنسيين والنمساويين فى عجلة ، وتخليها عن جميع الأقاليم التى ظفرت بها من بروسيا خلال الحرب . وأفزعه أن يذيع بطرس عزمه على تجريد جيش روسى على الدنمرك لاسترداد دوقية شلزفج التى أخذتها الدنمرك من أدواق هولشتين ، ومنهم أبو بطرس . وأبان الجنود فى غير لبس إنهم سيرفضون خـــوض حرب كهذه ، فلما طلب بطرس إلى كيريل رازوموفسكى أن يزحف بجيش على الدنمرك أجابه القائد « ياصاحب الجلالة يجب أولا أن تعطينى جيشا آخر يكره جيشى على الزحف . » [٧٢]

وفجأة وجد بطرس نفسه مكروها رغم إصلاحاته الجريئة الممتازة ، كرهه الجيش خائنا لوطنه ، وكرهه الإكليروس لوثريا أو شرامن اللوثرى ، وطالب الأقنان الذين لم يعتقوا بالحرية فى تذمر وصخب ، وسخر منه البلاط ووصفه رجلا أحمق مأفونا . وفوق هذا كله حامت حوله شبهة عامة فى أنه ينوى تطليق كاترين والزواج من خليلته . [٧٣] « أن هذه الشابة » (كما يروى كاستيرا) « العاطل من أى موهبة خطاب أو كلام ، المتغطرسة فى غباوة .. استطاعت بدهائها أن تحصل من القيصر — تارة بتملقه ، وتارة بتأنيبه ، وتارة حتى بضربه — على تجديد للعهد الذى قطعه لها ... وهو

أن يتزوجها ويبوئها عرش روسيا بدلا من كاترين [٧٤] ولما لعبت برأسه السلطة والخمر عنف فى معاملة كاترين ، حتى لقد رماها علانية بالحماقة . [٧٥] كتب البارون دبروترى إلى شوازيل يقول : «إن الإمبراطورة (كاترين) فى وضع شديد القسوة ، وهى تعامل بمنتهى الاحتقار . . . ولن يدهشنى أنا العليم بشجاعتها وعنفها إن دفعها هذا إلى نوع من الشطط . . . ولا يألو بعض أصدقائها جهداً فى تهدئتها ، ولكنهم لا يترددون فى المخاطرة بكل شىء فى سبيلها أن اقتضى الأمر » [٧٦] .

وكانت سانت بطرسبرج وأرباضها حافلة بأنصار كاترين . أحبها الجيش والحاشية وجماهير الشعب . وكان أخلص أصدقائها فى هذه الأيام العصيبة ، بعد وصيفاتها وجريجورى أورلوف ، أمير داشكوفا « إيكاترينا رومانوفنا » . ولم تكن هذه السيدة الجريئة المغامرة تتجاوز التاسعة عشرة ، ولكنها كانت ذات مكانة مرموقة فى القصر لأنها ابنة أخى المستشار فورونتسوف وأخت خليلة بطرس . وكان بطرس فى سذاجته أو بين كؤوس الخمر قد كشف لها عن نيته فى خلع كاترين وإحلال اليزافيتا فورونتسوفا محلها على العرش . [٧٧] ونقلت داشكوفا النبأ إلى كاترين ، — ورجتها أن تشترك فى مؤامرة لتنحية بطرس . ولكن كاترين كانت قد دبرت فعلا مؤامرة مع نيكيتا بانين ، مربى ولدها بولس ، وكيريل رازوموفسكى ، هتمان (زعيم) أوكرانيا ، ونيقولا كورف رئيس الشرطة ، والأخوين أورلوف ، و ب . ب باسيك ، وهو ضابط فى فوج محلى .

وفى ١٤ يونيو أصدر بطرس أمره بالقبض على كاترين ، ثم ألغى الأمر ، ولكنه أمرها بالاعتكاف فى بيترهوف ، على اثنى عشر ميلا غربى العاصمة . أما بطرس نفسه فخلا بعشيقته فى أورانينباوم . وترك تعليمات بأن يعد الجيش نفسه للإبحار إلى الدنمرك ، ووعد بأن يلحق به فى يوليو . وفى ٢٧ يونيو قبض على الملازم باسيك لالقائه خطباً تحط من قدر الإمبراطور . وخشى جريجورى وألكسى أورلوف أن يكرة بالتعذيب على الاعتراف بالمؤامرة ، فقرر التصرف فوراً . وعليه ففى الثامن والعشرين ركب ألكسى

فى عجلة قاصداً بيترهوف ، وأيقظ كاترين، وأقنعها بأن تعود معه راكبة إلى سانت بطرسبرج. وفى طريقهما توقفا عند ثكنات فوج اسماعيلوفسكى، واستدعى الجند على قرع الطبول ، وناشدتهم كاترين أن ينقذوها من تهديدات الأمبراطور، فأقسموا على حمايتها، « واندفعوا ليقبلوا يدى وقدمى، وهدب ثوبى ، وهم يدعونى مخلصتهم » (فى رواية كاترين ليونيا فوفسكى[٧٨]) — لأنهم علموا أنها لن ترسلهم إلى الدنمرك . ومضت إلى كتدرائية كازن فى حراسة فوجين والأخوين أورلوف ، وهناك نودى بها حاكماً مطلقاً لروسيا . ولحقت بها فرقه بريوبرازنسكى هناك ، وتوسل رجالها إليها « أن — تغفر لنا أننا آخر من جاء »[٧٩] ثم انضم إلى صفوفهم حرس الخيالة ، وصحبها أربعة عشر ألف جندى إلى القصر الشتوى ؛ وهناك أعلن مجمع الكنيسة ، ومجلس الشيوخ رسمياً خلع بطرس وتولية كاترين . واحتج بعض ذوى المقامات الرفيعة ، ولكن الجيش أرهبهم ، فأقسموا يمين الولاء للإمبراطورة .

وارتدت زى نقيب فى حرس الخيالة ، وركبت على رأس جندها إلى بيترهوف . وكان بطرس قد ذهب إلى هناك صبيحة ذلك اليوم ليراها ، فلما علم بالثورة فر إلى كرونستات . وعرض عليه مونيش أن يصحبه إلى بومرانيا ويجند جيشاً ليرده إلى العرش ، ولكن بطرس عاد إلى أورانينباوم وهو عاجز عن اتخاذ القرار . فلما اقتربت قوات كاترين أنفق يوماً فى التماس حل وسط ، ثم وقع على اعتزاله العرش فى ٢٩ يونيو (حسب التقويم القديم) ؛ قال فردريك : « لقد سمح بأن يطاح به كما يسمح طفل بأن يرسل إلى فراشه »[٨٠]. وسجن فى روبشا ، على خمسة عشر ميلا من سانت بطرسبرج . والتمس من كاترين أن تسمح له بالاحتفاظ بخادمه الزنجى ، وكلبه الصغير ، وكمانه ، وخليلته . فأجيبت طلباته كلها إلا آخرها . ونفيت اليزافيتا فورونتسوفا إلى موسكو : ثم اختفت من صحائف التاريخ إلى الأبد .